النقد الثقافي و نقد الثقافة و الدراسات الثقافية:

النقد الثقافي هو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية، وينتمي هذا النقد الثقافي إلى ما يسمى بنظرية الأدب على سبيل التدقيق، في حين تنتمي الدراسات الثقافية إلى الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة والإعلام وغيرها من الحقول المعرفية الأخرى. وفي هذا السياق يقول "عبد الله الغذامي":" ونميز هنا بين نقد الثقافة والنقد الثقافي، حيث تكثر المشاريع البحثية في ثقافتنا العربية، من تلك التي عرضت وتعرض قضايا الفكر والمجتمع و السياسة و الثقافة بعامة، وهي مشاريع لها إسهاماتها المهمة والقوية، وهذا كله يأتي تحت مسمى نقد الثقافة، كما لابد من التمييز بين الدراسات الثقافية من جهة والنقد الثقافي من جهة ثانية، وهذا تمييز ضروري التبس على كثير من الناس حيث خلطوا بين نقد الثقافة وكتابات الدراسات الثقافية، وما نحن بصدده من نقد ثقافي، ونحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح النقد الثقافي ليكون مصطلحا قائما على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه، أولا ثم هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الجمالي، من حيث إنه المضمر النسقي لا يتبدى على سطح اللغة، ولكنه نسق مضمر تمكن مع الزمن من الاختباء، وتمكن من اصطناع الحيل في التخفي، حتى ليخفى على كتاب النصوص من كبار المبدعين والتجديديين، وسيبدو الحداثي رجعيا، بسبب سلطة النسق المضمر عليه".

وعليه النقد الثقافي عبارة عن مقاربة متعددة الاختصاصات، تنبني على التاريخ، وستكشف الأنساق والأنظمة الثقافية، وتجعل النص أو الخطاب وسيلة أو أداة لفهم المكونات الثقافية المضمرة في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي، أما الدراسات الثقافية، فتهتم بعمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وقد توسعت لتشمل دراسة التاريخ، وأدب المهاجرين، والعرق، والكتابة النسائية، و الجنس، والعرق، والشذود، والدلالة، والإمتاع وذلك كله من أجل كشف نظرية الهيمنة و أساليبها.

بين النقد الأدبي و النقد الثقافي:

مصطلح النقد الأدبي ومصطلح النقد الثقافي يعودان إلى أصل لغوي واحد كما يشتركان في الاهتمام بالأعمال الأدبية، لكن من الناحية الاصطلاحية يشير الأول إلى المناقشة العقلانية للأعمال الأدبية، وإلى النشاط الذي يمكن أن يشمل بعض أو كل الإجراءات النقدية المختلفة و المعروفة (تصنيف عمل ما طبقا لنوعه الأدبي، تفسير معناه، تحليل بنيته وأسلوبه، الحكم على قيمته...) أما الثاني فيعني تقيما معتبرا لعمل أدبي ما عادة ما يكون في شكل مقالة أو مراجعة.

كما نجد أن النقد الأدبي يشير إلى فعل النقد أو العملية النقدية دائما، في حين يشير النقد الثقافي إلى تحليلات ذلك الفعل أو تلك العملية في صورة مقالة أو مراجعة مكتوبة، بالإضافة إلى أن الأول يكاد ينحصر في الأدب و النقد الأدبي، أما الآخر فيمتد إلى مجالات أخرى منها الأدب نفسه، ليمارس عملية نقدية للخطاب السائد في تلك المجالات فهو أشبه بنقد النقد، وبالتالي فإن النقد الأدبي يمثل العملية النقدية بكل إجراءاتها وكل أدواتها المنهجية المنطبقة على النص الأدبي أو النص الإبداعي على وجه الخصوص، أما النقد الثقافي فيتجاوز النص الأدبي إلى شيء آخر أوسع وهو الخطاب بكل مفاهيمه.

وما هذا الوسع إلا نتيجة حتمية لما يحمله مفهوم الثقافة، باعتبارها ذلك الكل المركب الذي يشمل على المعرفة، والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وأي نوع آخر من القدرات والعادات التي اكتسبها المرء بوصفه عضوا في المجتمع.

كما أن هذا التوسع الذي يعرفه مجال النقد الثقافي يؤدي بنا إلى القول بأن الفعل الجماهيري والثقافي مثل الأغنية الشبابية والنكتة، والإشاعات، واللغة الرياضية، والإعلامية، والدراما التلفزيونية هو الذي أصبح سائدا في مثل هذا المجال النقدي، فهذا "جونثان كولر" يتساءل عما يحدث في الحقل النقدي، حين يرى أن أساتذة الأدب ينصرفون عن دراسة "ملثون" إلى دراسة "مادونا" وعن دراسة "شكسبير" إلى دراسة الدراما التلفزيونية، ويرى البروفيسور الفرنسي يكتب عن السجائر، وزميله الأمريكي يكتب عن السمنة.

إن ما يحدث هو الدراسات الثقافية والتي كسرت مركزية النص فلم تعد تنظر إليه ولا إلى الأثر الاجتماعي الذي قد يضمن بأنه من إنتاج النص، لقد صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما يكتشفه عنه من أنظمة ثقافية، فالنص حسب الدراسات الثقافية ما هو إلا وسيلة وأداة ومادة خام، يستخدم لاستكشاف أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية والإشكاليات الأيديولوجية وأنساق التمثيل، وكل ما يمكن تجريده من النص.

لقد تجاوز النقد الثقافي الرؤية المسيطرة على النقد الأدبي، والتي تجعل من الأدبي الخطاب الذي قررته المؤسسة الثقافية باستنادها إلى مواصفات بلاغية وجمالية، قديمة وحديثة، والتي بفضلها يتم الفرز والتصنيف وتتم عمليات استبعاد كثيرة، فهناك فنون راقية وفنون تبتعد عن صفة الرقي.

والنقد الثقافي تأتي وظيفته وأهميته من كونه تلك النظرية التي تنقد الاستهلاك الثقافي للمستهلك، أي الاستقبال الجماهيري والقبول القرائي لخطاب ما، والذي قد يكون لا يتناسب مع ما تتصوره عن أنفسنا وعن وظيفتها في الوجود، إنه ذلك النقد الذي يتساءل على مدى المقروئية التي يحظى بها خطاب أو ظاهرة ما فهمه هو كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، وهو بمثابة علم العلل عند أهل مصطلح الحديث، من حيث هو بحث في علل الخطاب، يشرح النصوص ويستخرج الأنساق المضمرة ويرصد حركتها، وكشف مضمراتها وأضرارها، إنه ذلك الغربال الذي ل يترك الخطابات الثقافية إلا وهو قد غربلها فعرف صالحها من طالحها و نافعها من ضارها ولولاه لساد كل جميل و لشاع كل نافع.

تطور النقد الثقافي

مصطلح "النقد الثقافي" مصطلح غير أوربي، يعود حسب تقدير بعض الباحثين إلى القرن 18، ولعل أن إحدى الإشارات المبكرة و المهمة في هذا المجال تعود إلى مقالة شهيرة للفكر الألماني اليهودي "تيودور أدورنو" والتي نشرها عام 1949م تحت عنوان " النقد الثقافي والمجتمع"، ففي المقالة هجوم على ذلك اللون من النشاط، الذي يربطه الكاتب بالثقافة الأوروبية عند نهاية القرن 19، بوصفه نقدا بورجوازيا، يمثل مسلمات الثقافة

السائدة ببعدها عن الروح الحقيقية للنقد، وما فيها من نزوع سلطوي للسائد والمقبول عند الأكثرية.

كما يؤكد " أدورنو" على أن الناقد الثقافي جزء مما ينتقده الناقد الثقافي غير راض عن الحضارة التي يدين لها بعدم ارتياحه، إنه يحدث كما لو كان ينتمي إلى طبيعة لم يصبها الدنس، أو إلى مرحلة تاريخية أرقى، مع أنه لا ينتمي إلى الجوهر الذي يتخيل نفسه متجاوزا له، فهو يعتبر الناقد الثقافي ذلك الناقد على الأوضاع الحضارية، فهو يتوجه بنقده إلى الحضارة لا غير، والتي بالرغم من أنه منها فهو يرى نفسه لا ينتمي إليها، وإلى جانب "أدورنو" نجد الفيلسوف الألماني "بورغن هايرماس" يشير إليه في كتابه " المحافظون الجدد - النقد الثقافي و الحوار التاريخي-" لكنه لم يعن بتعريف محدد بل اكتفى بدلالة شائعة حسب ما تضمنته مقالة "أدورنو" فقط.

أما "هيدان وايت" وفي مؤلفه الذي يحمل عنوان "بلاغيات الخطاب- مقالات في النقد الثقافي-" لسنة 1978، فقد أشار إلى أن الخطابات الموظفة في العلوم الإنسانية تقوم على بلاغيات لا تختلف كثيرا عما يعتمد عليه الأدب، وواضح أنه اعتبر تحليله لذلك التداخل الخطابي نوعا من النقد الثقافي.

غير أن العمل الأكثر اتصالا بالموضوع من الناحية المنهجية والاصطلاحية هو المشروع الذي أتى به "فنست ليتش"، والذي جاء في جزئين عنوان الأول منها "كلاسيكيات النقد الثقافي" لسنة 1990، ففي مقدمة هذا الجزء يشير إلى أن النقد الثقافي في بريطانيا، والذي يعود إلى القرن الثامن عشر، قد تطور مع نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين ليتصل بالنشاط الاستعماري بالإمبراطورية البريطانية.

لقد طرح "فنسنت ليتش" مصطلح النقد الثقافي وجعله مرادفا لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية يقول: " يعد التشكيل الحديث للدراسات الثقافية لاسيما في بريطانيا خلال السبعينات من القرن العشرين لحظة تأسس وازدهار بارزة في التاريخ الطويل للنقد الثقافي".

فالنقد الثقافي كان من بوادر ازدهاره وتطوره الظهور الجديدة الحديث للدراسات الثقافية خلال فترة السبعينيات خاصة في بريطانيا، وذلك منذ أن تأسست مجموعة "بير منهجام" ، ولقد تطور المركز وتحول تحولات عديدة إلى أن انتشرت عدوى الاهتمام النقدي الثقافي.

يشير "ليتش" إلى أن النقد الثقافي قد تعرض لمعوق كبير، متمثلا في "شكلانية" أو " النقد الشكلاني" ومدارس أخرى كانت تقرأ النص من الداخل وتقيده بحدوده الشكلانية، ويرى إن الإعاقة هذه قد جاءت نتيجة تقيدها للنقد الأدبي حيث لا يخرج عن أطر الأدب. يقول "ليتش"": "يمكن لمثقفي الأدب أن يقوموا بالنقد الثقافي دون أن يتخيلوا عن اهتماماتهم الأدبية"، في القول إشارة إلى طبيعة العلاقة بين النقد الأدبي و النقد الثقافي، فـ"ليتش" يشير إلى أن النقدين مختلفان لكنهما يشتركان في بعض الاهتمامات، فالناقد الثقافي يقوم بنقده الثقافي من دون التحلي عن الاهتمامات الأدبية، فهو حسبه لا يمكن الفصل بين الثقافي والأدبي .

إذا كان النقد الثقافي تحتكره الثقافة الغربية، والتي تشكل المرجعية الرئيسية للتعرف على سماته ومراحل تطوره ، فإن هذا لا يعني أن الثقافة العربية قد خلت منه ومن المهتمين به، فإذا فهمنا النقد الثقافي بمعناه العام وليس بالمعنى ما بعد البنيوي عند "ليتش" ورأينا أن الثقافة مرادفة للحضارة، فإنه يمكننا الحديث عن نقد ثقافي عند الكثيرين من العرب منذ منتصف القرن 19، فما كتبه "طه حسين" في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" وما نشره "العقاد" و"جماعة الديوان" وبعض المهاجرين" وما قدمه "أدونيس" في "الثابت والمتحول"، إضافة على كتابات بعض الباحثين المعاصرين كـ" عبد الله العروي" و"محمد عابد الجابري"، " طه عبد الرحمان " و"هشام جعيد" يمكن اعتباره نقدا ثقافيا .

مراجع المحاضرة:

- أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي" تمهيد مبدئ ي للمفاهيم الأساسية.

- فيصل الأحمر و نبيل دادوة، الموسوعة الأدبية، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

-ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي.

- عبد الله الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر للنشر و التوزيع، ط1، 2004.

- عبد الرحمان بن اسماعيل، الغذامي الناقد " قراءة في مشروع الغذامي"، مؤسسة اليمامة للنشر، الرياض، العدد 98/97 ديسمبر2001.

روافد النقد الثقافي:

استفاد النقد الثقافي نظرية و تطبيق من حقول و مجالات معرفية عدة، مثل الفلسفة، البلاغة، والأدب، والنقد، كما انفتح على مجموعة من المناهج النقدية تمثلا أو معارضة، مثل : البنيوية، السيميائية، والتفكيكية، والتأويلية، والنقد النسائي ، والبنيوية الأنثروبولوجية، وجمالية القراءة، الماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والنقد الكولونيالي أو ما يسمى أيضا بالنقد الاستعماري، والنقد الجنوسي...وبصفة عامة، لقد تأثر النقد الثقافي أيما تأثر بالنقد الحداثي و النقد ما بعد الحداثي على حد سواء.

كما تأثر هذا النقد الثقافي بكتابات "ريتشاردز"، و "رولان بارت"، و "ميشيل فوكو"، و" جاك ديريدا"، وفي هذا النطاق يقول الغذامي في كتابه النقد الثقافي: "لقد تدرجت النقلات النوعية في مجال النظر النقدي من أطروحة "ريتشاردز" في التعامل مع القول الأدبي بوصفه عملا إلى "رولان بارت" الذي حول التصور من العمل إلى النص، ووقوفه على الشفرات الثقافية كما فعل في قراءته "لبلزاك" وفي أعماله الأخرى التي فتح فيها مجال النظر النقدي إلى أفاق أوسع وأعمق من مجرد النظر من النص إلى الخطاب، وتأسيس وعي نظري في نقد الخطابات الثقافية والأنساق الذهنية، جرى الوقوف على فعل الخطاب وعلى تحولاته النسقية، بدلا من الوقوف على مجرد حقيقته الجوهرية، التاريخية أو الجمالية"

ويبدو لنا من هذا أن النقد الثقافي أقرب إلى المنهج التفكيكي من باقي المناهج الأخرى نظرا لوجود مجموعة من القواسم المشتركة التي تتمثل في : الاختلاف، و التشريح، والنص المضاد، و التقويض، واستكشاف المضمر و المختلف....

وعليه فقد ظهر النقد الثقافي في الغرب رد فعل على النظرية الجمالية، والبنيوية اللسانية، والسيميائيات النصية، والبويطيقا، وفوضى التفكيك وعدميته، وذلك باتجاهاته المختلفة: الماركسية الجديدة، والمادية الثقافية، والتاريخانية الجديدة، وما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي.

وقد ارتبط النقد الثقافي، على مستوى التحليل وتشغيل الآليات المنهجية، بمجموعة من العلوم الإنسانية، كالتاريخ، والإثنولوجيا، والأنتربولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، وعلم الإعلام، وعلوم الحضارة....، فقد تبنت الدراسات الثقافية دور مساءلة العلوم المنتمية إلى الحقل الاجتماعي وعلوم الإنسان، واستجوبت ممارسات النقد الأدبي التقليدية وممارسات النظرية الجمالية، ولعبت فيها دورا حاسما، وهذا ما يجعلها إفرازا للنظرية البنيوية وما بعدها، وتجسيدا لما يمكن أن تفضي إليه ما بعد البنيوية من دور في الحياة العامة، وهو دور أحجمت عنه ما بعد البنيوية في صورتها التقويضية لأسباب منهجية تتعارض جذريا مع طرحها، لكن الدراسات الثقافية تبنته، واعتبرته وازع قوتها، ودافع نشاطها.

وهكذا فالنقد الثقافي هو مجموعة من المناهج والمقاربات المتعددة الاختصاصات التي تصب كلها في الحقل الثقافي، وخدمة الأنساق المضمرة اللاعقلية والأنظمة الإيديولوجية.